فى زوايا التاريخ

أول مؤتمر فى الاسلام

وماذا أثمر ؟

درست ـ كما درس غيرى ـ شيئاً من التاريخ الاسلامى ، ومررت ـ كما مر الكثيرون ـ مر الكرام على نقط هامة من هذا التاريخ ؛ غير أنى أذكر أن نقطة أو نقطتين منه لم تنالا قسطا من الاهتمام كأخواتهما ، وإحدى هاتين النقطتين هى التى سأتكلم عنها فى بحثى هذا :

توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذهل المسلمون وأكبروا موته ، وتباينت أقوالهم فى الوفاة ، وكان لذلك الذهول الأثر الأكبر فى هذا التباين ، وكان لا بد للعاصفة من الخمود ، فما أن سكن روعهم وهدأ ثائرهم ، حتى انصرفوا إلى الجدى من الأعمال ، فأخذ بعضهم فى إعداد معدات الدفن ، واجتمع آخرون للتفكير فى مصير المسلمين ؛ وبين هؤلاء وأولئك نجد نفراً من كبار المهاجرين يفد على سقيفة بنى ساعدة ـ بعد أن اجتمع فيها الأنصار ـ لانتخاب الخليفة ؛ ولا نعلم من أمر هذا الاجتماع الشىء الكثير ، ولكننا نعلم أنه تكون من أبى بكر وعمر وأبى عبيدة ، وأن تفردهم فى الاجتماع لم يكن عبثاً ، فلا هم كانوا مع على وصحبه يقومون بواجبهم نحو الرسول الفقيد ، ولا هم حضروا اجتماع الأنصار منذ بدئه ، وما كانوا ـ وفيهم خيار الصحابة ـ بالذين يتوانون بلا سبب أو بسبب واه عن أحد أمرين مهمين كهذين .

إذن لقد اجتمعوا ، فماذا كان مدار البحث وعلام اتفق هذا الثالوث ؟ لنتقدم قليلا ، خطوة أو خطوتين ، إلى مؤتمر السقيفة نفسه فلعل فيه الجواب ولعلنا مهتدون إليه .

يقول المؤرخون إن عمر حاول أن يتكلم فى ذلك الاجتماع فمنعه أبو بكر وتكلم هو ، وها أنا ذا أدلى بكلمة عمر فى هذا الصدد كما ذكرها المؤرخون حرفياً :

« وقد كنت زورت مقالة قد أعجبتنى وأردت أن أقولها بين يدى أبى بكر ، وكنت أدارى منه بعض الجد ، وهو كان أحلم منى وأوقر ، فقال أبو بكر : على رسلك ، فكرهت أن أعصيه وكان أعلم منى وأوقر ، والله ما ترك كلمة أعجبتنى فى تزويرى إلا قالها فى بديهة وأفضل حتى سكت » .

فهل كان أبو بكر يعلم الغيب أو كشف له عن القلوب حتى علم ما فى نفس عمر فقاله ؟ ! أو لا يجوز أن يكون اطلع على ما فى نفس عمر من ذى قبل ؟ قد يقول البعض إن المقام كان يستدعى ذلك الكلام الذى أضمره عمر وقاله أبو بكر ؛ ولكن أليس من الصعب أن لا تغيب عن أبى بكر نقطة مهمة كهذه كانت هى أول ما عن لعمر إذا لم يكن هناك سابق تفاهم ؟! ثم

لماذا تخلى عمر عن حقه فى الكلام بهذه السرعة ، مع أن موقفه كان للمصلحة العامة ؟ وبماذا إذن نستطيع أن نفسر كلمة «على رسلك» سوى أنها تعنى : أن تمهل ، فنحن متفقون وسأتولى الكلام عنك ؟ قد يجيبون بأن عمر فعل ذلك احتراماً لأبى بكر ، ولكن عمر ـ الذى ثبت أنه كان أحياناً يعمل بخلاف رأى الرسول صلى الله عليه وسلم حين كان يرى أن ذلك الخلاف أضمن للمصلحة العامة ـ ما كان ليأبه لأبى بكر فى سبيل تلك المصلحة ، إذ من يضمن له أن صاحبه سيتكلم بما يضمر هو ، لولا أنه كان على يقين من ذلك ؟ ثم بماذا أنهى أبو بكر خطابه ؟ لقد قال: «عليكم بأحد الرجلين: عمر بن الخطاب أو أبى عبيدة عامر بن الجراح » أى إنه طلب منهم مبايعة رجل من رجلين ، أحدهما منعه عن الكلام قبل هنيهة ، وما هذه بالسياسة لو كان يدعو بالبيعة لعمر ، فمنذ برهة يتزله عن المنبر ، فلا يجد فيه مقدرة تامة ليسوس جمعاً من المسلمين ويقنعهم ، وبعيدها يجد فيه الكفاءة الكبرى لأن يقود المسلمين جميعاً ويحكمهم ، ولكن بماذا أجابه عمر ؟ كان جوابه أن ضرب على كفه بالبيعة وقال: «أيكون هذا وأنت حى ؟» ، وهكذا نقد أول بند فى الاتفاقية ....

أما وقد وصلنا إلى هذا الحد ، فلنعد إلى الوراء قليلا ، لنرجع البصر كرة أو كرتين ، إلى بعيد موت النبى صلى الله عليه وسلم ، فكأنى بهؤلاء الأقانيم الثلاثة فى اجتماعهم يتحدثون .

ماذا جمعهم ؟ جمعهم الخطب الجلل والمصاب الجسيم بموت الرسول عليه السلام ، رأوا أن هذا الاسلام الرضيع بحاجة إلى من ينقذه من موت محتم يودى به فى المهد ، كما كاد يحدث ، فاستعرضوا أمامهم الشخصيات التى تصلح لذلك المنصب الخطير ، منصب خلافة النبى الأعظم :

العباس: نعم هو دوحة من الدوحات الهاشمية ، وعم النبى صلى الله عليه وسلم ، وشيخ من شيوخ قريش ، ولكنه حديث العهد بالاسلام بيعد أن يدين له من أسلم منذ عشرات السنين ، إذن فعلى : نعم هو ابن عم الرسول ، وزوج ابنته ، ولكنه فتى حدث يصعب أن يخضع له الشيوخ من القبائل ، وقد اعتادوا ألا يذعنوا إلا لطاعن فى السن وسديد فى الرأى . لم يبق إلا هم وخصوصاً أبا بكر ، فهو أول من أسلم ، وهو الصديق ، وحمو الرسول ، وثانى اثنين إذ هما فى الغار ، ووكيله فى الحج والصلاة ، فأجمعوا على أبى بكر ، ولكنهم ـ وهم أصحاب عقول نيرة ـ لم يكتفوا بهذا الحد الذى وصلوا إليه ، فالاسلام تكتنفه الأخطار من أربع جهاته ، وحياة خليفة واحد قد لا تكون من الكفاية بحيث تنتشله من هذه الأخطار ، إذن فليبحث عن ولى عهد ، فكان أن عهد بها لعمر ، ثم بحث عن خلف لولى العهد فكان أبا عبيدة . وانفرط عقد الاجتماع وكان ما كان من أمر مؤتمر السقيفة وانتخاب أبى بكر .....

والمنصف لا يستطيع أن يرى فى انتخابهم هذا أى مظهر من مظاهر إيثار النفع الخاص على النفع العام ، فانهم ـ والحق يقال ـ انتقوا فأحسنوا الانتقاء ، ولا أدل على ذلك من الوئام التام الذى ساد المسلمين فى زمنهم ، والأمن الذى استولى على داخلية البلاد إبان حكمهم ، ولقد استطاعوا فى الخلافتين المتتاليتين أن يصلوا إلى الغاية التى رموا إليها ، وهى إنقاذ الاسلام وانتشاله من الهوة التى كاد يقع فيها .

ولكن علياً الداهية فطن إلى ذلك الاجتماع ، واستطاع أن يدرك ما دار فيه فامتنع عن مبايعة أبي بكر مدى ستة أشهر، رأى بعدها أن لا بد له من البيعة، خصوصاً بعد موت فاطمة وتنكر الناس له ، فأرسل إلى أبي بكر يستدعيه للبيعة بمفرده « كراهية محضر عمر بن الخطاب» كما يقول المؤرخون ؛ولعله رضي بالأمر الواقع من ولاية إبي بكر، ولكنه حاول انتزاع عمر من ولاية العهد لبليها هو ، إلا أن علياً وجد لنفسه قرناً بعمر الذى أقسم على أبي بكر أن لا يذهب وحده، ولكن هذا ذهب قائلا لعمر : « وما عساهم أن يفعلوا بي والله لآتينهم » ؛ ولم يستطع على ـ على رقة أبي بكر وسهولة انقياده ـ أن يقنعه بالتخلي عن رجل عاهده واعتقد فيه أنه أجدر من يلي الخلافة بعده ، فتوفى أبو بكر وقد عهد بالخلافة لعمر ، وهكذا نفذ البند الثاني . . . .

رأينا الظروف وانت هذا الحلف فى القسم الأكبر من خطته ؛ فهل يا ترى يقدر لها أن ينفذ القسم الباقي منها ؟

أصبح عمر خليفة المسلمين وأمير المؤمنين ، وعادت المياه إلى مجاريها بينه وبين علي،حرصاً منهما على السلام العام وجمع الكلمة ؛ وعادت « الكراهية » محبة ووئاماً، وغدا علي مستشار الحكومة القضائي ومرجعها فى الهام من أمورها بمعونة كبار الصحابة،وكان قد بقي من الثلاثة واحد هو أبو عبيدة ، ثالث الزمرة ... نظر عمر حوله فرأى أنه يصعب عليه تحقيق برنامجهم القديم إذا لبث أبو عبيدة فى منصبه مجرد دقائق ، بينما كانت لخالد بن الوليد المخزومي قيادة الجيوش ،فكان هذا أحد الأسباب التي دعت لتنحية خالد وتنصيب أبي عبيدة فى منصب هو الثاني بعد الخلافة، يستطيع صاحبه أن يطمح إليها، وهكذا مهد له السبيل .

ولكن علياً من جهته كان يسعى دائباً ـ سواء لدى عمر أو عند سواه ـ ليكون خليفة عمر ممن يرجع إلى هاشم بنسب ، ويمت إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بالقربى.

وأبى القدر أن يذعن لأماني الثلاثة حتى النهاية فعاندهم، وتوفى أبو عبيدة قبل عمر، وبذلك حلت آخر حلقة من حلقات الاتفاق واعتبر فى حكم الانتهاء .

وكان لسعي علي ووفاة أبي عبيدة أثر جعل علياً من ضمن الذين رشحهم عمر للمنصب السامي ، ولكن عمر أبى عند وفاته — وقد رأى أنه لا يستطيع أن يترك المسلمين مطمئنين إلى خليفة واحد كما تركهم أبو بكر فيستطيع أن يقضي نائم البال من هذه الجهة — أقول أبى إلا أن يذكر صديقه القديم الذى لو كان حياً لكفاه مؤونة كل ذلك، فقال «رحم الله أبا عبيدة لو كان حياً لاستخلفته عليكم » .

إلى هنا ينتهي بي البحث؛ وكل رجائي ممن رأى فيه مغمزاً لغامز أو مظنة لخطأ أن ينوه به وله مني شكري الوافر . ؟

عبد الرحمن أبو لبن
بكلية الحقوق بالجامعة السورية بدمشق